﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَاداً ﴾ ... إلى قوله : ﴿ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ (١) .

* * *

فصل

فى حقيقة قولهم : « إنَّ وجود الكائنات هو عين وجود اللّه »

اعلم أنَّ حقيقة قول هؤلاء : إنَّ وجود الكائنات هو عين وجود اللّه تعالى ليس وجودها غيره ولا شئ سواه ألبتة ، ولهذا مَن سماهم حلولية - أو قال : هم قائلون بالحلول - رأوه محجوباً عن معرفة قولهم خارجاً عن الدخول إلى باطن أمرهم ، لأنَّ مَن قال : إنَّ اللّه يحل فى المخلوقات فقد قال : بأنَّ المحل غير الحال ، وهذا تثنية عندهم وإثبات لموجودين - أحدهما : وجود الحق الحال ، والثانى : وجود المخلوق المحل - وهم لا يقرون بإثبات وجودين ألبتة ، ولا ريب أنَّ هذا القول أقل كفراً من قولهم ، وهو قول كثير من الجهمية (٢) الذين كان السَلَف يردون قولهم ، وهم الذين يزعمون أنَّ اللّه بذاته فى كل مكان . وقد ذكره جماعات من الأئمة والسَلَف عن الجهمية وكفَّروهم به ، بل جعلهم خلق من الأئمة - كابن المبارك ويوسف بن إسباط وطائفة من أهل العلم والحديث من أصحاب أحمد وغيره - خارجين بذلك عن الثنتين والسبعين فرقة . وهو قول بعض متكلمة الجهمية وكثير من متعبديهم . ولا ريب أنَّ إلحاد هؤلاء المتأخرين وتجهمهم وزندقتهم تفريع وتكميل لإلحاد هذه الجهمية الأولى وتجهمها وزندقتها .

وأما وجه تسميتهم « اتحادية » ففيه طريقان - أحدهما : لا يرضونه لأنَّ الاتحاد على وزن الاقتران ، والاقتران يقتضى شيئين اتحد أحدهما بالآخر ، وهم

---

(١) البقرة : ١٦٥ - ١٦٧

(٢) للتعريف بالجهمية انظر جـ ١ هامش ص ١١٧ ، وجـ ٣ هامش ص ١٢ ، ٢٨ (البلتاجى)

لا يقرون بوجودين أبداً . والطريق الثانى : صحة ذلك بناءً على أنَّ الكثرة صارت وحدة كما سأبيِّنه من اضطرابهم .

وهذه الطريقة إما على مذهب ابن عربى [1] فإنه يجعل الوجود غير الثبوت ، ويقول : إنَّ وجود الحق قاض على ثبوت الممكنات ، فيصح الاتحاد بين الوجود والثبوت ، وإما على قول مَن لا يفرِّق فيقول : إنَّ الكثرة الخيالية صارت وحدة بعد الكشف ، أو الكثرة العينية صارت وحدة إطلاقية .

* * *

---

(١) ابن عربى : هو أبو بكر محمد بن على ، محيى الدين ، الحاتمى الطائى - نسبة إلى حاتم الطائى - الأندلسى . متصوف مشهور ، من أنصار مذهب وحدة الوجود . أطلق عليه أتباعه : « الشيخ الأكبر » ، وكان يُعرف فى الأندلس باسم « ابن سراقة » ، أما فى المشرق فقد كان يُعرف بابن عربى - من غير أداة التعريف - تمييزاً له عن القاضى أبى بكر بن العربى .

ولد ابن عربى بمرسية فى ١٧ رمضان سنة ٥٦٠ هـ ، ورحل إلى اشبيلية عام ٥٦٨ هـ واستقر بها قرابة الثلاثين عاماً حيث درس الحديث والفقه فيها ثم فى سبتة ، وزار تونس عام ٥٩٠ هـ ، ثم نزح إلى المشرق عام ٥٩٨ هـ حيث تنقل بين مصر - التى تعرض فيها لمحاولة الاغتيال - ثم مكة وبغداد وحلب والموصل وآسيا الصغرى ، حتى استقر أخيرا بدمشق ومات بها عام ٦٣٨ هـ حيث دفن بسفح جبل قاسيون .

كان ابن عربى باطنياً ، واستمد معارفه كلها من ذلك النور الباطنى الذى اعتقد أنَّ الله قد أفاضه عليه ، وذهب إلى أنَّ الوجود كله واحد ، وأنه ليس إلا مظهراً للذات الإلهية ، وعلى ذلك فالأديان المختلفة - فى نظره - كانت متكافئة ، وزعم أنه رأى النبى صلى الله عليه وسلم ، وأنه عرف اسم الله الأعظم ، وعرف الكيمياء بالمكاشفة لا بالتحصيل ، مما دعا الناس إلى اتهامه بالزندقة ومحاولة قتله فى مصر .

وتنحصر فلسفة ابن عربى فى ثلاثة مبادئ : وحدة الوجود ، والتجليات - التى تأثر فيها بالفلسفة الأفلاطونية الجديدة ، والكلمة - التى ابتدع فيها نظرية هى الأولى من نوعها فى الإسلام .

● أما وحدة الوجود - ذلك المذهب الذى اعتنقه ابن عربى - فليس من الإسلام فى قليل أو كثير ، لأنه يرى أنَّ الوجود حقيقة واحدة ، وبعد التعدد والكثرة أمراً قضت به الحواس الظاهرة والعقل الإنسانى القاصر عن أن يدرك الوحدة الذاتية للأشياء ، أو يدرك المجموع كمجموع ، =

= ويتلخص مذهبه فى عبارته القصيرة الواردة فى « الفتوحات » ، وهى قوله : « سبحان مَن خلق الأشياء وهو عينها » . فهو هنا يقرر وجود الأشياء ووجود خالق لها ، كما يقرر الوحدة الذاتية أو العينية للاثنين : الخالق والمخلوق .

ويقول فى الفصوص :

يا خالق الأشياء فى نفسه ... أنت لما تخلقــه جــامــع

تخلق ما لا ينتهى كونه ... فيك فأنت الضيق الواسع

فلا فرق فى نظره بين الواحد والكثير ، أو الحق والخلق ، إلا بالاعتبار والنظر العقلى . أما العارف فيدرك بطريق الذوق وحدها - وعلى هذا فمذهبه « واحدى » لا « ثنوى » ، إلا إذا اعتبرنا الثنوية فى الصفات لا غير ، لأنه كثيراً ما يصف الحقيقة الوجودية الواحدة بالمتقابلات أمثال : الحق والخلق ، والباطن والظاهر ، والأول والآخر ، والمشبه والمنزه ... وأمثال ذلك .. أما الحقيقة فى ذاتها فواحدة لا تقبل كثرة ما .

ويستند مذهب ابن عربى فى وحدة الوجود إلى مذهب الأشاعرة فى الجوهر والأعراض ، فالذات الإلهية ، أو العين الواحدة التى هى أصل كل شئ تقابل الجوهر عند الأشاعرة ، والمجالى المختلفة التى تظهر فيها هذه الذات تقابل الأعراض والأحوال عندهم ، واختلاف الأعراض على الجوهر الواحد وعدم استقرارها عند الأشاعرة يقابله ما يسميه ابن عربى : بالخلق الجديد ، وهوظهور الذات الإلهية فى صور الموجودات المختلفة فى كل لحظة فى ثوب جديد ، والفرق بين مذهبه ومذهبهم ينحصر فى أنَّ ما يسميه الأشاعرة جوهراً ، يسميه ابن عربى ذاتاً إلٰهية ، وحقيقة مطلقة وحقاً وباطناً ، وما يسمونه أعراضاً وأحوالاً يسميه هو : الخلق والعالم الظاهرى وعالم الحس ... وغير ذلك .

ولا يحاول ابن عربى أن يقيم الدليل على وجود الحق ولا على وحدة الحق والخلق ، أما وجود الحق فغنى - فى نظره - عن البرهان لأنَّ الحق ظاهر بصور جميع الموجودات ، ولا شئ أظهر من الوجود ولا أعرف منه ، وأما وحدته مع الحق فليست مما يقوم عليه الدليل المنطقى ، بل طريق إدراكها الذوق لا غير ، لذلك لا يبالغ ابن عربى فى إظهار عجز العقل عن إدراك الحقائق ، ويصف لنا القلب وأسراره والذوق وإدراكه ، وهذا الجزء من فلسفته يشرح نظرياته فى المعرفة وفى ماهية النفس .

وقد أداه قوله بوحدة الوجود إلى القول بوحدة الأديان ، لا فرق بين سماويها وغير سماويها ، إذ الكل يعبدون الإله الواحد المتجلى فى صورهم وصور جميع المعبودات ، والغاية الحقيقية من عبادة العبد لربه - عند ابن عربى - هى التحقق من وحدته الذاتية معه ، وإنما الباطل من العبادة - فى نظره - أن يقصر العبد ربه على مجلى واحد دون غيره ويسميه إلٰهاً . يقول فى « الفصوص » : =

= عَقَدَ الخلائق فى الإله عقائداً وأنا اعتقدتُ جميع ما عقدوه

كما يقول :

لقد كنتُ قبل اليوم أنكر صاحبى إذا لم يكن دينى إلى دينه دانى

لقد صار قلبى قابلاً كل صورة فمرعى لغزلان ، ودير لرهبان

وبيت لأوثان ، وكعبة طائف وألواح توراة ، ومصحف قرآن

أدين بدين الحب أنّى توجهت ركائبه ، فالدين دينى وإيمانى

ولهذا نرى ابن عربى يحذر أتباعه أن يؤمنوا بدين خاص ، ويكفروا بما سواه ، فيقول : « فإياك أن تتقيد بعقد مخصوص ، وتكفر بما سواه ، فيفوتك خير كثير ، بل يفوتك العلم بالأمر على ما هو عليه ، فكن فى نفسك « هيولى » لصور المعتقدات كلها ، فإنّ الله تعالى أوسع وأعظم من أن يحصره عقد دون عقد ، فالكل مصيب ، وكل مصيب مأجور ، وكل مأجور سعيد ، وكل سعيد مرضى عنه » .

ويستلزم هذا الدين الأسطورى نفى عذاب الآخرة ، قرب الصوفية - فى دينهم - كل مشرك وكل موحد ، ويستحيل أن يعذب الرب نفسه ، ولهذا يقول ابن عربى :

فلم يبق إلا صادق الوعد وحده وما لوعيد الحق عين تعاين

وإن دخلوا دار الشقاء ، فإنهم على لذة فيها نعيم مباين

نعيم جنان الخلد فالأمر واحد وبينهما عند التجلى تباين

يُسمَّى عذاباً من عذوبة طعمه وذاك له كالقشر ، والقشر صائن

● أما التجليات - التى تأثر فيها ابن عربى بالفلسفة الأفلاطونية الجديدة فليست هى الفيوضات التى تكلم عنها أفلوطين . وبالرغم من أنه يذكر « الطفل الأول » و « النفس الكلية » و « الطبيعة » و « الجسم الكلى » وغيرها من الألفاظ التى يطلقها أفلوطين على فيوضاته ، إلا أنّ ابن عربى لا يعنى بها سوى أسماء مختلفة لمسمى واحد هو الحقيقة الوجودية المطلقة .

فالتجليات عنده مسألة اعتبارية محضة ، وليست أسماء لموجودات مختلفة متمايزة كما هى عند أفلوطين ، فإذا اعتبرنا الواحد مجرداً عن العلاقات والنسب وعن كل ما من شأنه أن يحده أو يقيده ، قلنا إنه تجلى فى صورة الأحدية أو فى العماء .

وإذا نظرنا إليه من حيث علاقته بما هو ممكن الوجود من الكائنات ، قلنا إنه تجلى فى مرتبة الألوهية أو مرتبة الوحدانية ، أو فى مقام الجمع ، أو مرتبة الأعيان الثابتة . =

= وإذا نظرنا إليه من حيث كونه عقلاً كلياً يحتوى جميع صور الموجودات ، قلنا إنه تجلى فى صورة العقل الأول فى الاسم الباطن ، أو فى الغيب ، أو فى صورة حقيقة الحقائق .

وإذا نظرنا إليه من حيث إنه مبدأ الحياة فى الكون ، قلنا إنه تجلى فى صورة النفس الكلية . أو من حيث ظهوره بالفعل فى صورة الكائنات ، قلنا إنه تجلى فى صورة أعيان الموجودات أو الجسم الكلى أو فى الاسم الظاهر .. أو من حيث كونه جوهراً يتقبل جميع صور الكون ، قلنا إنه تجلى فى صورة الهيولى أو المادة الأولى أو الكتاب المسطور .

وبهذه الطريقة يشرح ابن عربى ما يسميه بالتجليات ويضعها موضع فيوضات أفلوطين مؤولاً هذه الفيوضات بما يلائم مذهبه الخاص ، واضعاً اصطلاحات جديدة لها مستمدة من القرآن أو غيره ، زائداً عليها عناصر جديدة من فلسفة أنباذ قليس وأفلاطون وأرسطو وغيرهم .

● ولابن عربى نظرية خاصة فى « الكلمة » يمكن أن يقال إنها أول نظرية من نوعها فى الإسلام ، وعنها أخذ كل مَن أتى بعده من الفلاسفة والمتصوفين الإسلاميين الذين خاضوا فى هذا الموضوع ..

ويبحث ابن عربى فى « الكلمة » من ثلاث نواح :

الأولى - الناحية الميتافيزيقية : وفيها يستعمل « الكلمة » كمرادف للعقل الأول أو العقل الكلى ، ويسميها حقيقة الحقائق ، ويقصد بها العقل الإلهى الذى هو مبدأ الحياة والوجود فى الكون .

الثانية - الناحية الصوفية : وهنا يسمى ابن عربى « الكلمة » بالقطب ، وبروح الخاتم ، وبالحقيقة المحمدية ، ويقصد بها المنبع الذى يُستمَد منه كل علم إلهى وكل وحى وإلهام وعلم باطن .

ولا يعنى - ابن عربى - بالحقيقة المحمدية محمداً الرسول ، بل الكلمة الكلية الجامعة الظاهرة بصورة الأنبياء من لدن آدم ، أو الواسطة فى نقل العلم الإلهى إلى قلوب الكلم - جمع كلمة - ويقصدون بها الأنبياء والأولياء وأفراد الإنسان الكامل - بحسب ما فيها من الاستعدادات وما جُبلت عليه أعيانها ، وبحسب الأسماء الإلهية التى تؤثر فيها .

الثالثة - الناحية الإنسانية : وفيها يبحث ابن عربى عن « الكلمة » متمثلة فى صورة الإنسان الكامل ، وهو يعنى بالإنسان الكامل : الإنسان الذى تحقق فيه الوجود بكل معانيه ، ولذلك يصفه بأنه الكون الجامع والعالم الصغير الذى تتجلى فيه الجمعية الإلهية التى استحق من أجلها أن يسمى خليفة الله وصورته وروح العلم وعلّته .

وهذا الإنسان الكامل بالنسبة لحقيقة الحقائق بمثابة الظاهر من الباطن ، فلا يتجلى الله فى كامل صفاته إلا فيه ، ولا يعرفه حق معرفته إلا هو ، والإنسان الكامل اسم عام يُطلق على كل الأناسى الكاملين الذين تحققت بوجودهم كل معانى الوجود ، وأخص هؤلاء الأنبياء والأولياء . =

= وعلى هذا .. فالكلمة فى نظرية ابن عربى هى العقل الإلهى السارى فى جميع الكون ، أو العالم العقلى الشامل لجميع الأعيان الثابتة للوجودات ، فهى لهذا مبدأ الحياة والتدبير ، ومبدأ المعرفة الحقيقية والعلم الباطن ، أو هى تجلى الواحد الحق فى ثلاث صور : صورة حقيقة الحقائق ، وصورة الحقيقة المحمدية ، وصورة الإنسان الكامل ، والكل فى نهاية مذهبه واحد ..

وهكذا .. أثار مذهب ابن عربى اختلافاً كبيراً فى آراء المسلمين فى عقيدته ، وكثر محبوه والمعجبون به ، كما كثر الناقمون عليه ، ووصفت عقيدته بأعظم المتناقضات ، فسماه قوم : قطب الله ، ووليه ، والعارف بالله ، كما نعته آخرون بأنه أكبر زنديق ، وأدنأ مشرك .

ومن أشهر المعجبين بابن عربى : مجد الدين الفيروز آبادى ، وسراج الدين المخزومى ، وكمال الدين الزملكانى ، وقطب الدين الحموى ، وصلاح الدين الصفدى ، وشهاب الدين عمر السهروردى ، ومؤيد الدين الجندى ، وكمال الدين الكاشى ، وفخر الدين الرازى ، ومحمد المغربى - أستاذ الجلال السيوطى - ، وبدر الدين بن جماعة ، وسراج الدين البلقينى ، وتقى الدين السبكى ، والجلال السيوطى ، وابن كمال باشا ، وعبد الرازق القاشانى وغيرهم .

ومن أشهر الناقمين عليه : رضى الدين بن الخياط - الذى كتب عن عقيدته كتاباً رماه فيه بالكفر ، كما أنَّ من ألد أعدائه وأعداء الصوفية على الإطلاق : شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ، وابن إياس - صاحب تاريخ مصر ، والتفتازانى ، وعلى القارى ، والإمام جمال الدين محمد بن نور الدين - الذى ذكره فى كتابه « كشف الظلمة عن هذه الأمة » وكثيرون غيرهم .

ويقول الإمام برهان الدين البقاعى (المتوفى عام ٨٨٥ هـ) : « ويدور كلام ابن عربى على الوحدة المطلقة ، وهى أنه لا شئ سوى هذا العالم ، وأن الإله أمر كلى لا وجود له إلا فى ضمن جزئياته ، ثم إنه يسعى فى إبطال الدين من أصله ، بما يحل به عقائد أهله ، بأنَّ كل أحد على صراط مستقيم ، وأن الوعيد لا يقع منه شئ ، وعلى تقدير وقوعه فالعذاب المتوعَد به إنما هو نعيم وعذوبة ، ونحو ذلك !! وإن حصل لأهله ألم ، فهو لا ينافى السعادة والرضا ، كما لم ينافها ما يحصل من الآلام فى الدنيا ، وهذا يحط عند مَن له وعى على اعتقاد : أنه لا إله أصلاً ، وأنه ما ثَمَّ إلا أرحام تدفع ، وأرض تبلع ، وما وراء ذلك شئ » .

من أجل هذا صرح بكفره ، وكفر مَن نحا نحوه فى مثل هذه الأقوال الظاهرة فى الضلال - جماعة من العلماء الأعلام ومشايخ الإسلام كالإمام شهاب الدين بن أبى حجلة التلمسانى الحنفى ، والإمام سيف الدين بن بلبان السعودى (ت ٧٣٦ هـ) ، والقاضى عز الدين بن عبد السلام الدمشقى =

= الشافعى (ت ٦٦٠هـ) ، وشيخ الإسلام تقى الدين بن دقيق العيد (ت ٧٠٢ هـ) ، والحافظ شمس الدين الذهبى (ت ٧٤٨ هـ) والصلاح خليل الصفدى ، وابن سيد الناس (ت ٧٣٤ هـ) ، والعلأمة محمد بن محمد المعروف بابن الجزرى (ت ٨١٤ هـ) ، وعماد الدين إسماعيل بن كثير (ت ٧٧٤ هـ) ، وقاضى القضاة تقى الدين على بن عبد الكافى (ت ٧٥٦ هـ) .

كما أنكر عليه الإمام قطب الدين بن القسطلانى وحذّر الناس من تصديقه ، وبيّن فى مصنفاته فساد قاعدته وضلال طريقه ، بالإضافة إلى عماد الدين أحمد بن إبراهيم الواسطى (ت ٧١١ هـ) ، فضلاً عن شيخ الإسلام تقى الدين أحمد بن تيمية (المتوفى عام ٧٢٨ هـ) والذى تصدى لزندقته وكفره وضلاله .

وثَمّ قول مشهور ، على ألسنة الصوفية بقتل محيى الدين بن عربى فى قوله : « معبودكم تحت قدمى » ، على أنّ الثابت أن المسلمين رجموا قبره بالحجارة ، وطمروا جثته حينما تبيّن لهم زيفه فى نظريته المعروفة بوحدة الوجود ، وظل قبره موضع ازدراء المسلمين إلى أن أفلح الصوفية على عهد السلطان سليم الأول فى الترويج لمؤلفاته ، وإقامة مسجد على قبره .

وأهم تصانيف ابن عربى : الفتوحات المكية ، وفصوص الحكم .

وله مجموعة صغيرة من الاشعار الغزلية نظمها فى مكة عام ٦١١ هـ - فى امرأة عالمة عرفها بمكة عام ٥٩٨ هـ - أشاد فيها بعلم هذه المرأة وجمالها الفتّان ، وما كان بينه وبينها من حب ، ثم رأى فى العام التالى أنه من المفيد أن يتبع أشعاره بشرح صوفى .

ولابن عربى - إلى جانب ذلك - من الكتب المطبوعة : محاضرة الأبرار - وهو فى الأدب والتاريخ (القاهرة عام ١٢٨٢ هـ) وديوان فى الأشعار الصوفية (بولاق عام ١٢٧١ هـ) ، وتفسير للقرآن (بولاق عام ١٢٨٧ هـ) ، وكتاب الأخلاق (القاهرة د . ت) ، والأمر المحكم (استانبول عام ١٣١٥ هـ) ، وتحفة السفرة إلى حضرة البررة (الآستانة عام ١٣٠٠ هـ) ، ومجموع الرسائل الالهية (القاهرة عام ١٣٢٥ هـ) ، ومواقع النجوم ومطالع أهلّة الأسرار والعلوم (القاهرة عام ١٣٢٥ هـ) . ويبلغ ما بقى لنا من تآليفه مائة وخمسين كتابا ، ويظهر أنّ هذا العدد ليس إلا نصف ما ألفّه ابن عربى فى الواقع .

(انظر دائرة المعارف الإسلامية مادة « ابن عربى » ، وكذا ، « تنبيه الغبى إلى تكفير ابن عربى » للعلأمة برهان الدين البقاعى ، نشر دار التقوى ص ١٩ ، ١٥ بتصرف ، وانظر أيضاً : كتابنا « اللّه توحيد .. وليس وحدة » - نشر مكتبة وهبة سنة ١٩٨٦ م) . (البلتاجى) .